قراءة لمختارات من «هتاف الخيبة» للقاص/ محمد القعود

السخرية اللاذعة ثورة على مرارة الواقع

إن السخرية اللاذعة – بوصفها سمة أسلوبية فنية – تهدف إلى كشف تناقضات الواقع واختلالاته، وتعرية تداخل مفاهيمه واضطراب أيديولوجياته ونظرياته الزائفة، من خلال تبصير الآخرين بمرارته وهول مآسيه وعدم قدرته على تجسيد الحقيقة الخالصة أو الاقتراب منها؛ وقد حظيت هذه السمة الأسلوبية برواج واسع في مجال الشعر العربي على امتداد تاريخه، ثم اتخذت مكانتها في السرد القصصي والروائي حتى أصبحت في بعض الأعمال الأدبية سمة خاصة مهيمنة –كما هو الحال في موضوع هذه القراءة –لتؤدي وظيفتها من خلال «إعادة صياغة العالم الواقعيّ ليس كما تقوله مظاهره المادية أو سطوحه الخارجية، بل كما تقوله النتائج التي يثيرها في دواخل المنتمين إليه، والمكتوين بأوار لاواقعيته ولامعقوليته، وبما يتسرطن داخله من مفارقات غاشمة، وسالبة لقيم الحق والخير والجمال»،

■ محمد القعود

ومن خلال التعبير بالألم الساخر يتم التأثير في أفكار المتلقي واعتقاداته وسلوكياته، ويعد هذا النقد الساخر انعكاسا لموقف المبدع المتمرد والناقم «على واقعه المشحون بكثير من الخطايا والرزايا والإحن والمحن»، في صورة تنضح بالبؤس والمعاناة الناتجة عن الاصطدام بالواقع المرير، جاعلة من النزوع التهكمي الساخر اللاذع ملاذاً من القمع والكبت، وقوةً لمواجهة الواقع المتسلط ودحضه، وقلب الأمور وتعريه المفارقات بغية «تحطيم الصورة غير المرضية لواقع مكرس وإعطاء انطباع ذاتي، ولو وهمي بالتشفي في الآخر القاهر والانتقام منه، وبالتالي نوع من التثمين للذات المقهورة المهانة ورد الاعتبار لها، ولا ريب في أن هذا التحطيم الوهمي الهروبي، هو وليد حالة انهيار نفسي شديدة الوقع، يريد صاحبها التخلص منها حتى ولو بالوهمي الآني المسكّن»، ولا تقتصر مهمة هذا الأسلوب في تخفيف مرارة الواقع فقط، بل تمتد لتصل إلى هدم المفاهيم المغلوطة والسلوكيات السلبية المتصلة بذلك الواقع المتخلخل، من خلال عرضه في صورة مضحكة بقبحها منفرة بهزليتها ساخرة بمن وما يحاول تكريسها، وإن كانت مضحكة فإنه «ضحك كالبكاء» أو هو ضحك مُبك، وبهذا «فالسخرية ـ هنا ـ لا نعني بها التهريج والإضحاك، كما يتبادر من التسمية. بل هي انعكاس لدرجة الوعي لدى الشخصيات الموظفة في النص»، وتتجلى هذه السمة الإبداعية في مظاهر متعددة، تنتقد وتهاجم الواقع وملابساته بصورة غير مباشرة، أي أنها لا تدخل في صراع مباشر معه وجهاً لوجه، نظراً لما يترتب على ذلك من التبعات والأخطار والمتاعب التي يكون المبدع في غنى عنها خاصة في وضع مائع بالاضطراب والقلق.

تبدو السخرية اللاذعة سمة أسلوبية فنية مهيمنة في أقاصيص «هتاف الخيبة» بدءاً من العنوان الخارجي وانتهاءً بالعناوين الداخلية والنصوص على وجه أخص؛ ومن خلال النظر في دلالات العنوان نجد أن الـ «هتاف» يشير إلى صدور صوت مجهول المصدر، إضافة إلى أنه يحمل طابع الاستغاثة وطلب النجدة والتنويه والإعلام و.....الخ، غير أن هذا المسار الدلالي ينكسر عند نسبة ذلك الهتاف إلى «الخيبة» التي تدل على الإخفاق والفشل وعدم التوفيق والحرمان من نيل المطلوب، وبذلك يفقد الهتاف فاعليته ودوره الدلالي والفعلي، ليعبر عن واقع مظلم ومأساة لا نهائية الاتساع والانتشار، أما بالنسبة للنصوص فقد تجلت فيها هذه السمة بشكل كبير وطاغٍ، وسنكتفي بنماذج منها على النحو الآتي:–

«جولة»

«قرر الفقر ذات لحظة أن يتنزه في شوارع المدينة..! لكنه سرعان ما عاد بعد لحظات وهو ينشج بالبكاء:

– المدينة مملوءة بآثامي..!!».

إن هذه الصورة – بما فيها من كوميديا – مُشبعة بذنوبٍ الفقر وأشكاله المتعددة، يبدو المجتمع – فيها – مُستلباً بضعفه، مُرتهناً لرحمة غيره، خاضعاً لأسر حاجته وعوزه، الأمر الذي يجعل حلمه محصورا في كيفية الحصول على ما يسد الرمق، وما إن يسكنه هذا الهم ويتمكن منه، فإنه يصبح شغله الشاغل وهدفه الوحيد، الذي يصرفه عن المطالبة بحقوقه التي كفلتها الأديان السماوية والقوانين الإنسانية، ويسلبه – بطريقة غير مباشرة – شرعيته وصلاحياته في نقد واقعه، ويمنعه من ممارسة حياته الطبيعية بكافة جوانبها، فيضيق معنى الحياة لديه، حتى يرى أن مفاهيمها الرئيسة (الحرية، العدالة، المساواة) لا تعدو كونها ترفاً وبذخاً خيالياً، لا جدوى من الحلم بها ناهيك عن السعي لتحقيقها، وحينئذ تصبح سياسة تكريس الفقر بكافة مظاهره، وسيلة ناجحة وفاعلة – على كافة المستويات – في عملية تدجين المجتمعات واختراقها، وتجميد وعيها وضمان عدم فاعليتها مطلقاً؛ إن هذا النص لا يكتفي بما يحمله في بُعديه – السطحي والعميق – من الدلالات والصور المتداخلة، بل يتجاوزها ليرسم أبعاد صورة حقيقية لمعاناة المجتمع المسحوق، الذي تتسع رقعته يوما إثر يوم ملتهمة مجتمعات الطبقة المتوسطة، ومن ثمّ يصبح التكوين الاجتماعي عبارة عن طبقتين؛ الأولى: طبقة ذوي الثراء الفاحش وهم القلة المتحكمة والمستغلة، والثانية: طبقة الفقراء المَعدمين وهم الكثرة المسحوقة المستغَلّة؛ هذا بالنسبة للجانب الدلالي.

إبراهيم محمد الهمداني

أما الجانب البنائي فيمكن القول إن النهاية المفتوحة للنص قد زادت من ثراء دلالاته، وعمقت أبعاد صورته الكلية المتشكلة من صور جزئية لا نهائية التداخل والترابط، كما أنها فتحت آفاق تعددية التأويل وديمقراطية القراءات ذات الاحتمالات المختلفة.

«تشجيع!»

«أوقفني شرطي وقال لي:

– غنِ لي عن الحرية..!!.

– أنا لا أعرف كيف أغني يا سيدي..!

– إذن ستغني هذه العصا.

وانهال عليّ ضرباً حتى رقص صوتي على غناء جسدي!!.».

تعد (الحرية) من أكثر الكلمات المستخدمة والمتداولة لدى الأوساط الإعلامية والنخب المثقفة والحاكمة، خاصة في دول العالم الثالث المفتقرة إلى أدنى درجات الحرية الفكرية بمعناها الواسع، ونظراً لكثرة الاستعمال اللاواعي لهذه المفردة أصبحت مستهلكة وفارغة من محتواها ومعناها الحقيقي تماماً، غير أن (الحرية) بوصفها مفهوماً وسلوكاً اجتماعياً تشترك فيه الإنسانية، غائبةٌ تماما حتى عند أولئك الذين يزعمون أنهم يمنحون الشعوب حريتهم الكاملة، ولعل أروع ما في هذا النص هو المقابلة بين الحرية والعصا، المواطن والشرطي، الغناء والقمع، بما يحمله كلّ طرف من تناقض وعداء تجاه الطرف المقابل له، وما تحمله كلّ ثنائية على حدة – ومجتمعة في سياقها الكلي – من مضامين ودلالات إحالية وإيحائية، فيبدو الأمر في غاية السخرية والإضحاك عندما يرغم المواطن على الغناء عن الحرية بالإجبار والعنف والقوة، وأكثر من هذا وذاك يتعرض للامتهان وتُسلب حريته وكرامته وإنسانيته بدعوى تلقينه ومنحه الحرية، فأي حرية تلك التي يتم تكريسها بالقوة وإذلال الضعيف المغلوب على أمره، الذي لم يعرف الحرية يوما لكي يُطلب منه ترديد أغنيتها.

«مشاعر»

سألني مسؤول بدرجة لص خطير:

أتعرف البكاء!!.

حياتي كلها دموع.

رائع.. هذا ما أبحث عنه.. أنا سأمتص دم البسطاء وأصادر أحلامهم وطبعا معها طعامهم وأشياءهم الثمينة وأراضيهم الخصبة.. وأنت تؤدي مهمتك.

ماهي أيها السيد المبجل..!!

أن تبكي على ما أصابهم نيابة عن مشاعري الرقيقة!!».

تبلغ السخرية المأساوية ذروتها في هذا المشهد، فبين طرفي القضية الإنسانية: الظالم والمظلوم، الجلاد والضحية، المتسلط والبريء، يقف طرف ثالث يلعب دور الوسيط بينهما وبوجوده تتجلى المأساة في أبهى صورها، والسخرية اللاذعة في أوضح تجلياتها، فلم تعد القضية بتلك الصورة المألوفة والمستهلكة، التي تعبر دائما عن سلوكيات القوى المهيمنة حين تسلب الضعيف وتقهره وتصادره جملة وتفصيلا، بل تعدى الأمر هنا دلالات تلك الصورة إلى ما هو أبعد لترسم ملامح ظلم من نوع آخر، لا يكتفي بالظالم المستبد كشخصية رئيسية وحيدة تمارس ذلك الدور بفردها من موقع استغلالي تسلطي، بل تحضر في النص شخصية ثالثة تمثل صورة ذلك الإنسان البريء في الأصل والمتحول إلى الظلم والمشاركة فيه ثانيا، فهو بريء من حيث أنه مواطن عادي أمام متسلط مستبد، وهو شريف ونزيه مقابل لص خطير، ويمتهن البكاء حرفة وسلوكا مستمرا مقارنة بمن يحترف النصب والاحتيال والسلب والابتزاز ومصادرة الآخرين بكل ما يتعلق بهم وصولا إلى دمائهم، غير أن تلك البراءة سرعان ما تتحول إلى ظلم في صورة جديدة بحكم المجاورة، ولعل أروع ما في هذه الصورة المتشكلة حديثا للظالم الجديد، هو أنه يمارس الظلم ببراءته المعهودة وحرفته – البكاء – التي لا يجيد سواها، لأن البكاء بالنيابة «أن تبكي على ما أصابهم نيابة عن مشاعري الرقيقة!!»، بمثابة الظلم نيابة عنه، وكأنه يعمل أجيرا أو مسخرا – ظالما مبتدئا – لدى الظالم الرئيسي.

إن المفارقة التي تحملها دلالات الشخصية الثالثة ذات مغاز عدة؛ فعلى سبيل المثال استطاعت الصورة المشهدية – فيّ النص – أن تكسر أفق التلقي وأحدثت صدمة عنيفة بسبب وجود الشخصية الثالثة، الإنسان البريء الذي يبكي على المظلوم ليس فقط نيابة عن الظالم، وإنما بأمر منه أيضا، ليكون الاستلاب والضعف والارتهان مضاعفا، وتصل المأساة الإنسانية إلى ذروتها حين يقوم المستبد بخلق نوع من الصراع والفتن المدمرة بين فئة المستلبين المضطهدين بعضهم بعضا، بينما يظل هو متخفيا في مسوح المصلحين الشرفاء وثياب الأبرياء ذوي المشاعر الرقيقة والحساسة جدا.

يمكن القول إن ما تحمله نصوص هذه المجموعة من رسائل الرفض والاستياء، تميل في معظمها إلى الوضوح والمباشرة في نقل وتصوير ونقد الواقع المرير بسخرية وتهكم لاذع، ما هي إلا صرخة مدوية في عالم الضياع المشرف على النهاية المؤلة الحتمية، كما إنها بمضامينها ومحمولاتها الدلالية لا تهدف فقط إلى إبراز صور مختلفة من أنماط الألم والمعاناة المتعددة، أو وضع تشكيلة الحياة الراهنة والمرتهنة بكل تداخلاتها وتعقيداتها بين يدي المتلقي وحسب، إنما هي – حسب تصوري – ثورة حقيقية وعارمة على ذلك الواقع المزري، على كافة المستويات الداخلية الفكرية والخارجية السلوكية، تاركة على عاتق المتلقي مسئولية صنع واقع آخر ومستقبل جديد، من خلال سلوك الاتجاه المعاكس لخط سير ذلك الواقع الذي كرسته الأنانية الفردية المستبدة، جاعلة منه وسيلة مثلى لتحقيق ذاتها وتكريس وجودها وتقديس أوهامها، على حساب الشعوب المغلوبة على أمرها، والتي بلغ بها الاستلاب حدا جعلها تؤمن به كقدر محتوم وقضاء لا مناص منه.

– نضال الصالح – النزوع الأسطوري في الرواية العربية المعاصرة – اتحاد الكتاب العرب – دمشق – 2001م – ص160.

– عناد غزوان – أصداء دراسات أدبية نقدية – اتحاد الكتاب العرب – دمشق – 2000م – ص40.

– قادة عقاق – دلالة المدينة في الخطاب الشعري العربي المعاصر – اتحاد الكتاب العرب – دمشق – 2001م – ص207.

– شارف مزاري – مستويات السرد الإعجازي في القصة القرآنية – اتحاد الكتاب العرب – دمشق – 2001م – ص40.

– محمد القعود – هتاف الخيبة «أقاصيص» – وزارة الثقافة والسياحة – صنعاء – 2004م – ص9.

– ن، م – ن، ص.

– السابق – ص10.

إلهانيات

ليلى إلهان

« لخفجة « نسوان ..

في صباح الأربعاء التاسع والعشرين من شعبان الماضي ، تلقيت دعوة حضور كريمة من أحدى صديقاتي الرائعات ، معها تلقيت أحاسيس دافئة ، ومليئة بالحنان والبهاء . كنت في مزاج جيد في ذلك الصباح ، وكانت معنوياتي في أحسن حالتها ، وكانت ابتسامتي زهرية ، وخطواتي سعيدة .

كنت أسمع عن هذا اليوم ، لكنني لم أعشه من قبل ، لكن هذه المرة سوف أقوم بالتجربة الشقية ، سوف التحق بنفسي الهاربة من الملل ، سوف التحق بمراسم التحضير للفطور الهادئ ، سوف أدس أصابعي بين تلك الصحون والملاعق بحميمية كبيرة وشيقة ، سوف أعيش الفرحة ، وأبعثر نفسي لها كعاشقة صغيرة .

لم أكن أدري بأن الوقت المسكين سوف يعيش معي لحظات حرجة في ذلك الصباح ، الصباح المظلوم معهن في « الحش « والتطفل على شئون الحالمين بالسعادة والطمأنينة . الصباح الذي سمع مثلي عن « فلانة وعلانة «

وعلى طول الآنسة « ل « وبدانة المطلقة « ج « ولم أكن أدري أنا ، والصباح ، والوقت ، بأننا في الحسبة أيضا وقد جاء دورنا ومحاسبتنا على اللبس ، والتأخير ، وأيضا الهدوء . لقد تمت محاسبتنا جميعاً نحن الثلاثة على أخطاء وأفعال لم نقترفها ، لقد تمت محاسبتنا كل باسمه وصفته . وقد تمت محاسبتي أنا أولاً على لون حذائي الوردي بأنه يجذب أنظار زملائي، وعلى ابتسامتي الزهرية ، والوقت تمت محاسبته على هروبه وخوفه منهن ، والصباح على هدوئه من فوضى أفواههن . لذا كنت أسمع العتاب كله ، وأدس صوتي في حلقي مخفية بذلك غضبي الشديد منهن . وعندما دقت ساعة الظهيرة وقارب الوقت على الانتهاء ، اختفت كل واحدة منهن تحت عيوبها وفرت .

* « اللخفجة» هي ثرثرة النساء في المناسبات المختلفة .

أنا على قد حالي

أحاول كل ليلة أن أمتلك هدوء المساء . أحاول أن أعيش لحظات سعيدة مفعمة بعبق المكان والذكريات . أحاول بكل ما أملك ' كي أؤمن حالتي تلك بروعة الهواء.

أحاول أن لا أسمع ذبذبات أصوات جاءتني من فضاء آخر .

ربما لأنني أحاول ذلك ..

لماذا أسمع إزعاج المنبه لي .. ؟ ولماذا أسمع صرخات أطفال الصومال بالقرب مني .. ؟

ولماذا أشم « الزقني « أنا وحدي دون غيري ، ولبان السيدة « زعفران « وهو يعكر صفو المكان ؟.

لماذا أصبحت « الصافية « الزافية « دون أي بند أو قرار جمهوري لتغيير أسماء حارات صنعاء .. ؟

هكذا كل مساء أحاول فك غضبي دون رقابة من جيراني المحترمين جدا .

لكنني أجد نفسي وقد أصبحت أنا المكان ، أنا اللبان ، وأنا الفوضى ، وأنا السيدة زعفران ، وأنا كارثة الساعة .

« طماش » ..

أولاد الحارة متعبون جدا من أنفسهم .

متعبون من تكرار اللعبة ذاتها . متعبون من أفراحهم الجديدة ، التي لا تتوافق مع أفكارهم البريئة .الأولاد لا يعرفون كيف يتم تأسيس حزب رعاية الطفولة ، أو حزب العواطف الطليقة من وجه الحرمان والعذابات المتكررة والخيبات المتواصلة ؟.

الأولاد لا يعرفون ما هي فائدة اختيار ألعابهم . وما هي الآلام التي سوفيلقونها منها .

أن « الطماش» الذي يطالب الآن بالعفو من الأولاد الجرحى والمصابين .. يطالب العفو من مشاكله الدائمة ، ربما كي تغفر له .

يطالب العفو من عصافير الدنيا التي فرت من جنونه المستمر وحرائقه .. يطالب العفو من أحاسيس فقدت ونبضها .

يطالب بخروجه من البلاد كأي لاجئ سياسي ، لأنه دمر ،وجرح وأعتدى على الكثيرين ..!!

فتح باب الترشح لجوائز العويس الثقافية

أعلنت مؤسسة سلطان بن علي العويس الثقافية في دبي فتح باب الترشيح للدورة الثالثة عشرة من جوائزها 2012 – 2013 . وذلك اعتباراً من 1 إبريل/ نيسان 2012 وحتى 28 فبراير/ شباط 2013 . وبادرت المؤسسة بإرسال استمارات الترشيح إلى معظم الجامعات العربية والمؤسسات والروابط والاتحادات والأسر الأدبية والثقافية لتكون متوفرة أمام المرشحين في كل أرجاء الوطن العربي، كما يمكن طلبها من المؤسسة مباشرة، أو عن طريق زيارة الموقع الالكتروني على شبكة الانترنت

ويحق للمتسابق ترشيح نفسه مباشرة الى الأمانة العامة للجائزة كما يحق لخمسة من الأدباء العرب ترشيح من يرونه مناسباً لنيل الجائزة، علماً أن إجمالي الجوائز 600 ألف دولار أمريكي بواقع 120 ألف دولار لكل حقل من الحقول التالية: الشعر، القصة والرواية والمسرحية، الدراسات الأدبية والنقد، الدراسات الإنسانية والمستقبلية، جائزة الإنجاز الثقافي والعلمي .

وكانت مؤسسة العويس قد وزعت في الرابع عشر من مارس الماضي الجوائز على الفائزين في الدورة الثانية عشرة (2011–2010)، حيث فاز الشاعر اللبناني محمد علي شمس الدين بجائزة الشعر، وفازت بجائزة القصة والرواية المسرحية الروائية المصرية رضوى عاشور، وفاز بجائزة الدراسات الإنسانية والمستقبلية المؤرخ العراقي (الراحل) الدكتور عبد العزيز الدوري، وفاز بجائزة الدراسات الأدبية والنقدية الناقد الفلسطيني الدكتور فيصل دراج . ومنح الروائي اللبناني أمين معلوف جائزة الانجاز الثقافي والعلمي .

إصدارات ثقافية

«الغارقون في العطر

● عمان– صدر مؤخرا للروائي الأردني، أيمن عبوشي، رواية «الغارقون في العطر»، عن دار فضاءات للنشر ـ الأردن .. وتعرض الرواية، التي تأتي بالقطع المتوسط، لمعضلة تقف ببطلها على مفترق طرق بين خيارات تختلط فيها النزوة الآنية، مع جدوى البحث عن الذات..

ويعبر الكاتب في أحداث متصاعدة إلى معضلة يختصرها فيما أسماها «الخيارات المتاحة في غرفة معتمة»، وهو قرار يتركه عبوشي لأي مغترب يقرر العودة إلى وطنه جاهلا بما ينتظره هناك، ومدركا ما فوّته في الغربة بحثا عن ثروة ترتبط بمعاش شهري، ونمط استهلاكي يستفيد من وسائل الرفاه المؤقت.

ويحاول «عزيز حسرين»، الشخصية الأولى في الرواية، أن يجيب عن أسئلة معلقة تحت وطأة أجواء قاسية يفرضها عليه المؤلف، حتى يصل به إلى الصورة المجردة للحياة. وإن كانت المعاناة التي يعيشها حسرين، مصطنعة برغبة مباغتة للعثور على ضالته في الدفق المتدافع للانفتاح الاقتصادي الذي يفرض نفسه عليه بكل كمالياته، وهالته المزيفة.

وتضع الرواية أبطالها أمام اختبارات متنوعة في حديتها، لتصل بهم إلى مقارنة صارخة بين القيمة الحقيقية للحياة من جهة، وهنا يتخذ النص من العلم رمزية مثالية لها، في مقابل إغواء الرفاه في دائرة مغلقة لا تنتهي..

وتأخذ هذه المتاهة شخوص النص إلى عبثية يجسدها «هادي الإبراهيم»، الذي يتشبث بحلم عصي، فنراه يدخل في صفقة خاسرة يقايض فيها مستقبله، لقاء مغامرة لا طائل منها. والقصة التي تبدأ بسرقة «هشام الجرزاوي» للملكية الفكرية لبحث اقتصادي كتبه في الأصل «فؤاد عفيف».. تطلق رصاصة البدء لثورة عشوائية يعلنها عزيز حسرين على نفسه المستكينة..

وفي خضم معركته القصيرة لاستعادة حقوق صاحبه الميت، يجد نفسه في مواجهة حالته السلبية، ويكتشف بمرارة واضحة هذيانه، وقبوله الخانع لروتين يومي يحيله إلى ترس في آلة..

وفيما لا يفصح المؤلف عن هوية المكان، إلا أنه يبقي تفاصيله واضحة تشي بما يمكن أن يستنتجه القارئ، ويحاول عبوشي الغوص في البنية النفسية لطبقة عاملة تعيش في المدينة بحثا عن فرص الكسب السريع، بعيدا عن الريف، وندرة وسائل الراحة التي تمتاز بها المدن..

وهنا تبدو انطوائية عزيز حسرين الطارئة، واضحة حين يفضل العيش في عالمه الافتراضي على الإنترنت، بعيدا عن عناء مكابدة معركة الحياة اليومية.. ثم ما يلبث أن يجسد النص النتيجة الحتمية لدورة حياة المغترب الذي ينزوي خارج وطنه، مفضلا عدم التفاعل مع المحيط الجديد، والاستعاضة عن ذلك بتكديس المال للحظة العودة التي قد لا تأتي أبدا.

«الغارقون في العطر» هي الرواية الثانية للكاتب أيمن عبوشي، الذي صدر له أيضا، رواية «إعدام ظل» عن دار فضاءات للنشر، والمجموعة القصصية «العلبة» عن دار الرحاب ـ لبنان.

صندوقي الأسود

● يكشف كتاب «صندوقي الأسود»، للكاتب والفيلسوف المصري الراحل، أنيس منصور، مجموعة من الأسرار، والحكايات عن حياة وابداعات ومحطات منصور. ويوضح المؤلف أنه كما في كل طائرة صندوق أسود لتسجيل ما يدور بين طاقم الطائرة وبينهم وبين المطار أو الطائرات المجاورة، فإن كل واحد له صندوق يسجل ما كان .

وما هو كائن وليس ما سيكون، ويبدأ رحلته الأخيرة من طريقه إلى المدرسة فيلاحظ أن رفاقه يتحدثون عما حدث لهم. أما هو فلا يشارك في أي حديث، ويبين انه في الفصل جعل منه المدرسون، تلميذاً مختلفاً. وحاولوا أن يجعلوا بقية التلاميذ مثله، ولكنهم لم يفلحوا، ما جعله وحده في ناحية دائماً مع كتاب أو كراسة في الفصل أو الفسحة، وبقية الطلبة في الناحية الأخرى. ويجيء ترتيبه الأول في كل السنوات الدراسية حتى يحس أنه أصبح عدو الطلبة.

وينتقل أنيس منصور ليطلعنا على واقع انه في البيت، لا أحد يسأل :ماذا فعل؟ فالأم لا تسأل وهو لا يتطوع بالكلام، والأب دائماً على سفر، فهو يعمل مفتشاً زراعياً في أرض عدلي باشا يكن بالصعيد، وعندما يصل من السفر تدخل السعادة في قلوب كل من في البيت، الأم والابن، وعندما يسأله الابن عن مستقبله يجيبه بكلمة واحدة:» بعدين .. بعدين...».

ويتحدث أنيس منصور عن حفل مدرسي، حضره المدرسون والطلبة وآباؤهم، وعرض مدرس اللغة العربية تجربة رآها في أميركا ونفذها في المدرسة، حيث طلب من التلاميذ أن يكتبوا في صفحة واحدة، عن ما حدث لهم في الشارع منذ خروجهم من البيت، وحتى وصولهم المدرسة، ثم حلل كتاباتهم، فهذا جاد وموضوعي، وهذا عاطفي، وهذا كاتب ساخر.. أما الطالب أنيس محمد منصور، فهو نوع نادر من البشر ذوي الحساسية الشديدة، ومن المحبين لأمهاتهم وأصحاب هذه القلوب الطيبة يعانون في حياتهم، وعيبهم الوحيد أنهم يمشون في الشارع مغمضي العينين لا يستوقفهم شيء أو أحد.

ويتطرق منصور للحديث عن ضعف مستوى نظافة وترتيب واساليب الكتّاب، انذاك، وقسوة سيدنا، لكنه لا يرى ذلك فكل شيء معقول وطبيعي ولا توجد أسباب لمقارنة الكتّاب والبيت والقرية، مع أي شيء آخر.

وعرفنا على كيفية بداية صراع عائلي حول مستقبله، فأبوه وشيخ الجامع يريان أن حافظ القرآن مكانه الطبيعي في الأزهر الشريف، ولكن الأم تقرر أن لا يكمل دراسته بالأزهر، فهو لا بد أن يكون طبيباً أو مهندساً، مثل الكثيرين من أقاربها. وفي النهاية ينتصر رأي الأم التي لا تعرف القراءة والكتابة، لكنها تعرف كيف تنظر في الواقع وتحدد المستقبل.

ويبين أنيس منصور، رأيه حول السعادة، موضحاً أنها هي الاستقرار أو القرار الثابت الذي يؤيده الجميع، وهو ما لم يحدث معه، ويدهشه أن يرى أصدقاءه يناقشون آباءهم وأمهاتهم ويعارضونهم، لكنه لا يستطيع أن يفعل ذلك أبداً، فهو فقط يحني رقبته، ويوافق :»حاضر يا ماما». ولكنه يكرر ما يفعله.

ولأنه لا يجد علاقات أو مشاعر أو أصدقاء إلا الكتب، فمن الطبيعي أن لا يكون على لسانه إلا الأسئلة، فيصفه آباء زملائه بأنه مجنون أو فيلسوف، ولكنه يصف نفسه بالكلمة الدقيقة: «غريب»، إلا انه لا يسكت.

ويشير أنيس منصور، إلى انه حاول عدة مرات، أن يتحرر من مؤثرات طفولته وميسم أمه. فكتب جانباً من مذكراته ونشره، ثم كتب ثانية وأحرق، كما انه يبحث عن طفولته.

ويؤكد منصور، انه، ورغم دراسته الفلسفة، وكونه قرأ وتأمل، لكنه في أعماقه كان يرى أن ما تقوله أمه أقوى من اليقين، أما أبوه فلم يكن معهم طوال الوقت، فكان غيابه نوعاً من الموت فلما اقترب مات نهائياً، لذا أصبح يعوض لقاءات أبيه بعد وفاته، بأن يحلم به يكلمه ويحاوره ويناقشه.

وفي النهاية يلخص أنيس منصور، كل علاقته بأمه، قائلاً: «ماتت أمي وكان موتها معنى لحياة أخرى، هي حياتي، فالموت شخصي لأنني أنا بعض الذي يموت .. الموت ليس نهاية، ماتت أمي .. كانت كل حياتي ولم أترك أحداً يعيش لي أو يموت بي أو من أجلي».

وتبدو التفاصيل متشعبة وموسعة في الكتاب، يصف فيها الراحل أنيس منصور، جملة حكايات واحداث في حياته.

وتتبدى السمة الأبرز في هذه الفصول ضمن الكتاب، أنها غير منتظمة أو مرتبة، بل إن الفقرات في الفصل الواحد تظهر أحياناً غير متتابعة، والفقرة ربما نجدها غير مفهومة، وتعطي الإيحاء بأنه ينقصها كلمة هنا أو هناك، بالإضافة إلى الكثير من الأخطاء المطبعية.

الكتاب: صندوقي الأسود

تأليف: أنيس منصور

الناشر: قطاع الثقافة ـ دار أخبار اليوم ـ مصر 2011

الصفحات: 175 صفحة